فى رحاب الخالدين

عبد الفتاح الصعيدى
١٨٩٢ - ١٩٧١

— ١ —

فى مائة السنة الأخيرة ، استقبلت الأمة العربية نهضة حضارية علمية أدبية ، خرجت بها من تخلف طال عهدها به ، وكان من أثر هذه النهضة أن فوجئت اللغة العربية بحشود حاشدة من المسميات المادية والمعنوية ، غير مألوفة لديها ، واضطربت آراء المفكرين فى موقفهم من أسمائها ، ونجم عن ذلك أن نشأت دعوات ، وتناوحت تيارات ، كل منها تعبر عن وجهة نظر فيما تعالج به مشكلة اللغة التى ينبغى اتخاذها لسانا للحضارة الجديدة ، والنهضة الحديثة . وأهم القضايا التى تمخضت عنها هذه الحقبة قضية التعريب ، وقضية العامية والفصحى . الأولى تصور حيرة العلماء والباحثين إزاء الألفاظ الحضارية الأجنبية ، هل يأبون التعريب جملة أو يقبلونه جملة بها وما حدود الإباء والقبول إن كان الجمع بينهما هو القول السديد ؟ . والقضية الأخرى : هل نبقى على الفصحى لغة تدوين وكتاب ، أو نتخذ العامية للتدوين والكتاب كما هى لسان المشافهة والخطاب ؟

فى فجر هذا القرن ، هتف شاعر النيل « حافظ إبراهيم » يصور ذلك أبلغ تصوير فى قصيدته المشهورة التى يقول فيها على لسان اللغة العربية ، وهى تنعى حظها بين أهلها :

أيهجرنى قومى عفا الله عنهم
إلى لغة لم تتصل برواة
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى
لعاب الأفاعى فى مسيل فرات
أرى لرجال الغرب عزا ومنعة
وكم عز أقوام بعز لغات
أتوا أهلهم بالمعجزات تفننا
فيا ليتكم تأتون بالكلمات
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن
فهل سألوا الغواص عن صدفاتى

فى جو هذا الخلاف الناشب بين دعاة المحافظة ودعاة التحرر ، وفى حومة النزاع الدائر بين أشياع أولئك وأشياع هؤلاء ، درج الفتى « عبد الفتاح الصعيدى » يتلمس طريقه إلى « مدرسة دار العلوم » وهى للفصحى معقل أشب ، ولسان ذرب ، فكأنما كان موهوبا ليكون جنديا يقظا من جنود الفصحى موصولا بها عقلا وقلبا

وروحا ؛ فهى تنزل منه منزلة العقيدة الراسخة والإيمان المكين ، ومن ثم كانت حياته وقفا على الدعوة لها ، وجهادا فى سبيل الذود عنها .

كانت الفصحى فى رأيه — كما رآها « حافظ » — بحرا فى أحشائه الدر كامن ، فألقى بنفسه فيه غواصا يجمع من أحشاء البحر أصداف الدر :

وكأنما أراد « عبد الفتاح » فى أخريات عمره المبارك ، أن يجدد ذلك الهتاف الذى صدع به « حافظ ابراهيم » على ضفاف النيل منذ سبعين سنة ، فهتف على ضفاف «دجلة» وهو ضيفها فى مؤتمر المجمع الذى انعقد فى بغداد منذ سنوات قلائل ، يقول :

ليلى بنى العرب فى أوطانهم لغة
بحبها وهواها قد شدا الشادى
وكلهم قيسها والحب يجمعهم
موثقا ضم منقادا لمنقاد
هى اللسان لدنياهم ودينهم
لحاضر مترف منهم وللبادى
تفصل العلوم إليها فيه ميسرة
للطالبين وتمهيد لإجداد
ياقوم عودوا لماضيكم فإن به
ركازكم فانفضوه نفض نقاد
جواهر الأرض إن تهمل بها صدئت
فأحسنوا الصنع واجلوا الجوهر الصادى

— ٢ —

ولد « عبد الفتاح » سنة ١٨٩٢ فى سمنود من أعمال محافظة الغربية ، ونشأ نشأة دينية خالصة ، فحفظ القرآن الكريم ، وفى مسجد « سيدى سلامة » طلب العلم فى حلقة شيخ عالم فاضل يسمى « الشيخ مصطفى البكرى الكبير » تطوع للإقراء والتدريس . ثم رحل « عبد الفتاح » إلى « المنصورة » طالبا فى مدرسة المعلمين الأولية ، ولبث فيها سنة ، وعلم أن هناك فى القاهرة مدرسة اسمها « دار العلوم » ، يدخلها من يمتحن فى حفظ « الألفية » فيما يمتحن فيه ، فسارع إلى حفظها ، واجتاز الامتحان موفقا ، وانتظم فى سلك طلاب « الدار » مجتهدا حريصا على أداء واجبه . وفيما يحدث به صديق عمره ، ورفيق دراسته وتأليفه ، الأستاذ حسين يوسف موسى أن « عبدالفتاح » كان معروفا بتدينه ، يدعوه ضابط المدرسة ظهر كل يوم ليؤم الطلاب المصلين . وكان أستاذه « ساطان بك محمد » مدرس الإنشاء يكل إليه تصحيح كراسات الطلاب ، فلا ينكر رفقاؤه ذلك عليه . وقد ظهر امتيازه فى نتائج الامتحانات ، فكان ترتيبه الأول فى بعض السنين ، وكان الخامس سنة ١٩٢٠ بين الخريجين .

— ٣ —

عين « عبد الفتاح » معلما فى المدارس الحكومية ، فلم يقف عند أداء واجبه المدرسى . بل عكف هو وزميله الأستاذ « حسين يوسف موسى » على تأليف كتاب

« الإفصاح فى فقه اللغة » . وفى مقدمة الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩ يتبين الدافع إلى التأليف فى هذه الفقرات :

« ابتدأنا حياة التدريس بالمدارس الابتدائية فرأينا أخواننا مدرسى الترجمة يفزعون إلينا فى إسعافهم بالألفاظ العربية الصحيحة لما يريدون ترجمته . فكانوا يصورون لنا المعانى ، ويطالبوننا بالألفاظ ، وكنا فى كثير من الأحيان لايمتد بنا اطلاعنا إلى مدى مايريدون ، فكنا نقف أمامهم موقف العجز ، ينالنا هذا العجز والمعاجم العربية بأيدينا ، ولكن ما غناء تلك المعاجم ومفاتيحها الألفاظ ، وهذه هى الضالة المنشودة ؛ فزعنا إلى كتب اللغة فالتمسنا منها ما يدنينا من غايتنا فوجدنا أن كتاب « المخصص » أوسعها رحابا . »

وتمضى المقدمة تشرح كيف استبان للمؤلفين أن هذا الكتاب الجليل الذى ينسق الكلمات بحسب موضوعاتها ، لايصلح إلا مرجعا للخواص ، ولا يسهل على غيرهم الانتفاع بما فيه ، فعمدا إليه ، يستخرجان مصاصه ، ويصطفيان لبابه ، ولبث كلاهما سبع سنوات ، بين قراءة وكتابة ، وتحقيق وتنسيق ، حتى لقد كتباه بيديهما خمس مرات .

خرج كتاب « الإفصاح » بهى المظهر ، جليل المخبر ، مبوبا بحسب الموضوعات ، شاملا لآثار الأرض والسماء ولكل ما تحمل الدنيا ويدب فيها من إنسان وحيوان وطير ونبات ، وما فى بطنها من معدن ، وماينشأ فوق صدرها من صخر ، وكل ما يعمله الناس من صناعة أو تجارة أو زراعة ، وما يمارسونه من علوم وفنون ويستعينون به من آلات وأدوات .

وقد صدر الكتاب بكلمة تقدير للأستاذ « عباس محمود العقاد » يقول فيها :

« سيرحب بهذا العمل الصالح المحافظون لأنه تراث قديم يضن عليه أن يهجر وأن ينتقل من صفة الكلام الحى إلى صفة الآثار المدفونة ، وسيرحب به المجددون لأنه يختصر لهم طريق التنقيب عن المفردات التى تكثر فى اللغات الإفرنجية وتقل نظائرها فى الفصيح المطروق من اللغة العربية ، وسيرحب به كل مشتغل بترجمة علم أو أدب أو صناعة ، دع عنك الأدباء الذين يكتبون فى معارض شتى من المعانى والأوصاف » .

وبعد ثلث قرن من ظهور الطبعة الأولى للكتاب ، أقبل صاحباه عليه يزيدان فيه ، ويستدركان عليه ، أو قل إنهما مكثا تلك الأعوام ينقحانه ويراجعانه ، حتى أخرجا طبعته الثانية سنة ١٩٦٧ فى مجلدين ضخمين يحتويان على ١٥٠٠ صفحة ، أكبر ما تكون الصفحات ، والأبواب مزيدة إلى ٢٣ ، وفروع الأبواب نحو ٢٠٠ ، والمواد اللغوية مربية على ١٢ ألفا . وليس من ريب فى أن « الإفصاح » فى صورته الحاضرة من أوفى

كتب اللغة على الإطلاق فى هذا الضرب من التأليف المعجمى القائم على توزيع الكلمات بحسب المعانى والموضوعات ، وكأن هذا هو الجواب الذى عناه « حافظ إبراهيم » فى قوله على لسان اللغة العربية . :

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن
فهل سألوا الغواص عن صدفاتى

— ٤ —

لبث الأستاذ « عبد الفتاح الصعيدى » يتنقل بين دور التعليم حتى اختير سنة ١٩٣٦ محررا فى المجمع ، وهو يومئذ فى سنيه الأولى ، فلم يكن « عبد الفتاح » مجرد موظف أتيح له دخول المجمع ليعمل فيه ، بل لقد رشحه للانتظام فى سلكه أنه مجمعى صميم ، دخل المجمع وكتابه بيمينه ، بل لقد سبقه إفصاحه إليه ، إذ اقترح المرحوم الأستاذ « على الجارم » فى الدورة الثالثة لمؤتمر المجمع أن تستخرج من « الإفصاح » الألفاظ التى يجوز استعمالها فى الاصطلاحات الحديثة أو الشئون العامة ، وأخذ المرحوم الأستاذ الشيخ « عبد القادر المغربى » على نفسه أن يقوم بهذا العمل ، فوافقهما المجمع .

استقر الأستاذ « عبد الفتاح » فى عمله المجمعى استقرار الرجل المناسب فى العمل المناسب : محررا ، فرئيس تحرير ، فمراقبا إداريا خلفا للمرحوم الأستاذ الشيخ « عبدالعزيز البشرى » ، يلتزم ما يلزم ، وفوق ذلك يلزم نفسه ما لا يلزم ، تحدوه الرغبة المشبوبة فى خدمة المجمع ، غيرة على اللغة ، وجدا فى موالاتها بما يعلى كلمتها فى مجالات العلوم والفنون والآداب ، حتى إنه كان حريصا على أن يحضر لجنة الطب متطوعا ، يسهم بعلمه وأدبه ، وكان أعضاء اللجنة يأنسون به ، ويعتزون بمشاركته لهم فى درس ما بين أيديهم من المصطلحات .

وحان يوم تعده الحكومة فى حسابها ، يوم إحالة إلى المعاش ، لبلوغ السن ، بالنسبة للأستاذ « عبد الفتاح الصعيدى » ، ولكن « عبد الفتاح » لم يأبه لذلك اليوم ، ولم يبال تلك الأوضاع ، ولم يرح نفسه من حيث أراحه النظام القانونى المرسوم ، بل استدام صلته بالمجمع ، يشهد لجنة الطب ، ويشترك فى عملها بما وسعه من جهد وبحث مشاركة حب واحتساب .

وأصبح الأستاذ « عبد الفتاح » عضوا بالمجمع سنة ١٩٦١ بعد قرابة عشر سنين من إحالته إلى المعاش ، لم تفتر فيها صلته بالمجمع ، وكان تعيينه بين من عينوا على أثر الوضع القانونى الجديد الذى وحد بين مجمع اللغة العربية بالقاهرة والمجمع العلمى العربى بدمشق . فلم يكن من جديد فى تعيينه إلا أن زمالته لأعضاء المجمع قد أخذت طابعها الرسمى ، فواصل بها نشاطه المجمعى طوال عشر سنين ، مشتركا فى المجلس والمؤتمر وفى لجان عدة بمثل الدأب المألوف منه خلال ربع قرن من قبل ، فى داره ، بين إخوانه ، محوطا بالتقدير والإعزاز .

— ٥ —

كان الأستاذ « عبد الفتاح الصعيدى » مشهودا له بالدقة والتحقيق فى كل ما يوسّد إليه ، ولقد أرادت وزارة الصحة » يوما أن تصدر « دستورالأدوية » وهو أول دسو يظهر باللغة العربية من نوعه ، فوكلت إليه مراجعته من الناحية اللغوية ، فقام بمهمته على الوجه المرضى .

ودقة الأستاذ « عبد الفتاح » تتمثل فى كل ما يتولاه من عمل ، حتى فيما يجوز التسامح فيه ، وهى خصلة طبع عليها ونمت معه . أخرج فى عصر شبابه مع زميله الأستاذ « حسين يوسف موسى » كتابا لطلاب المدارس الثانوية يشرح المنهج المقرر فى فن اللغة والمحفوظات سنة ١٩٣٢ . وفى هذا الكتاب صورة واضحة مشرفة لما يلزم العالم المتمكن والباحث المتحرى من الضبط والإتقان . ففى شرح الكلمات لااكتفاء بما يسنح للخاطر أول وهلة ، بل الغوص والفحص والتمحيص ، حتى فى كتاب مدرسى للناشئة . . .

كان من بين النصوص رسالة « لعبدالحميد الكاتب » يقول فيها : « من ساعده الحظ فى الدنيا سكن إليها ، ومن عضته بنابها ، ذمها ساخطا عليها ، وشكاها مستزيدا لها » . والمعنى المتبادر إلى الذهن من الأستزادة فى هذه الجملة هو طلب الزيادة ، وبهذا شرحت الكلمة فى الكتاب الرسمى الذى أخرجته الوزارة يومئذ ، ولكن هذا الشرح لم يقنع به الأستاذ« عبد الفتاح » وزميله ، وبان لهما أن السياق لا يتفق والمعنى المتبادر ، وهداهما البحث إلى معنى خاص للاستزادة يليق بتلك الجملة ، ويتسق مع دلالتها العامة ، ذلك هو : استزاد فلان فلانا : إذ عتب عليه فى أمر لم يرضه ، فالمعنى على هذا هو : شكاها عاتبا عليها ، وهو معنى تتحقق به المناسبة والمشاكلة .

ومن طرائف ما يذكر للأستاذ «عبدالفتاح» انتصاراً لأوضاع الفصحى وإيماناً بأسرارها ، أن مناقشة جرت فى شأن التصغير فى العربية ، فقال قائل : ما بال الياء تزاد للتصغير ، والزيادة فى المبنى زيادة فى المعنى ، والمقام مقام نقص ووكس : فأجاب على البديهة : هذه الياء قاصمة الظهر ، جاءت فى الكلمة لتشطرها ، وتقصم ظهرها . وفى ذلك إشعار بالتصغر لا ريب !

— ٦ —

عاش الأستاذ « عبد الفتاح » يتشيع لفكرة لا يتزحزح عنها ، فهو يدعو لها بكل سبيل : تلك هى أن تقرأ الكتب القديمة ، ويستخرج ما فيها من مصطلحات ، وتفتش المعجمات وتوضع موادها فى جزازات ، وترتب على حسب المعانى ، ثم توزع على حسب موضوعاتها ، لرجوع المتخصصين إليها وقت الحاجة ، واختيار ما يرونه صالحاً منهـــا .

كانت مناقشاته صدى لهذه الفكرة ، ومحاولة لتحقيقها . وحسبى أن أذكر منها مثلا حين عرضت كلمة « الرمد الحبيبى » فقد نادى بأن تستبدل بها كلمة « الحثر » ، واحتج لها بأنها كلمة واحدة ، وأن الاشتقاق منها ميسور ، تقول : حثرت العين ، والرجل حثر والعين حثرة ، وكان الاعتراض على هذا أن « الرمد الحبيبى » حلقة فى سلسلة ، وأن تخصيصه بكلمة متميزة يباعد بين نوعه وسائر الأنواع المتصلة . والعلميون حراص على وحدة الدلالة للمدلولات المترابطة فى فى مثل هذا المقام ، وربما أضيف إلى هذا الاعتراض أن كلمة الحثر غريبة على الأسماع ، تحول الغرابة بينها وبين يسر الاستعمال .

لم يكن الأستاذ « عبد الفتاح » يؤمن كبير إيمان بما نسميه « الغرابة » ، فهو فى سبيل الإفصاح يعالج أن يستدنى العصىّ ويستأنس الوحشىّ ، ولعل مرجع ذلك عنده طول المعاناة لذخائر اللغة ، مألوفها وطريفها ، مأنوسها ومجفوها . فما كان الغريب على سمعه بغريب !

وفى مجلة المجمع ، جزئها الثالث عشر ، مقال له عنوان : « مصطلحات العلوم فى اللغة العربية ودور المجمع فيها » تصدى فيه لموضوع «الغرابة » والاحتجاج بها فى مواجهة ما يقترح استحياؤه من ألفاظ اللغة غير المألوفة للدلالة على معان مستحدثة ، فقال :

« نسمع من حين لآخر من يرمى بعض المصطلحات بالثقل على السمع أو الصعوبة فى النطق أو الحوشية أو الغرابة أو الندرة إلى غير ذلك من الأوصاف التى تخرج اللفظ عن دائرة الفصاحة فى رأيهم وذوقهم وفات هؤلاء أن تلك أمور نسبية تختلف باختلاف الأذواق والمواهب والقدر والطبائع ، وتتأثر بمقدار الحظوظ من الثقافة والمرونة فى تناول الأشياء ، وليست الضوابط التى وضعها علماء العربية إلا ضوابط تقريبية يسهل التقيد بها فى لغة الأدب ، حيث تكون الألفاظ الفصيحة كثيرة فتتاح الفرصة لاختيار الأفضل والأليق ، أما لغة العلوم فإنها لغة التحقيق والتدقيق والفحص والبحث ، فيجب أن يراعى فى وضع ألفاظها جانب الوضوح والتعيين أكثر من أى شئ آخر » .

وبعد أن يسترسل فى التهوين من شأن الغرابة ، يقول :

« ما لواضعى مصطلحات العلوم والفنون لاينتفعون بهذا التيسير ، وما لهم يضيقون على أنفسهم ما وسعه الله لهم ، مع أنهم إنما يختارون بأنفسهم لأنفسهم ، ويضعون حدود المعنى الاصطلاحى على مقتضى عرفهم وتواضعهم ، ويستعملون الألفاظ فى دراساتهم وأبحاثهم وتأليفهم وتدوينهم ، فلا شأن لأحد عندهم فيما هو من شأنهم » .

ذلك رأى الأستاذ « عبد الفتاح » ، وتلك عقيدته ، وأيا ما كان الأمر وفاقا أو خلافا فلا مشاحة أن فى دعوته توجيها ينتفع به ،

وفى رأيه جانبا خليقا بالرضا والقبول . فى بطون المعجمات ألفاظ سائغة لها من دقائق المعانى وجلائل الأغراض ما يمكن الاستفادة به فى الدلالة على ما يجد فى دنيا الحضارة من ألوان المسميات فى عالم المرئيات وفى عوالم الأفهام .

— ٧ —

وبعد ، فقد كان الأستاذ « عبد الفتاح الصعيدى » — فيما أعلم ، طوال اتصالى به ، مدة عمله فى المجمع — رجلا من أولى العزم ، صاحب عقيدة ومبدأ . وكانت له شخصية سوية ، كونتها عوامل أصيلة ، وكان منطقيا مع نفسيته ودراسته ، يصدر حين يصدر عن إيمان ويقين ، ويقول مايقول عن رأى وبينة . يناقش على علم ، ويعلم ما يعنى . وإنها لكرائم خصال لها أوزانها الثقال فى تمييز الأعمال وتقدير الرجال .

ولا ينسينا الحديث فى مكانته العلمية ، وآرائه اللغوية ، أن نشيد بما كان يتحلى به من مكارم أخلاق ، عرفها الزملاء له ، وأكبروه لها . كان طيب القلب ، دمث الطبع ، رفيع النفس ، عف اللسان ، يجادل لا يكابر ، ويجهر بما يريد فى غير تطاول . ومن ثم كان محببا إلى من يخاصمونه فى رأى ، بقدر ما كان محببا إلى من يشايعونه فيما يرى .

وأما خلة الوفاء فيه ، فقد صاحبته كظله حتى النفس الأخير : إذ خرج من بيته — فى يوم خرج من الدنيا — فى طريقه إلى دار المجمع ، فى طاعة الوفاء ، ليشارك فى الحفاوة بذكرى زميل جليل ، هو الأستاذ مصطفى نظيف ، فوقع له حادث مؤسف ، عاق خطاه ، وعجل به إلى لقاء الله . وفقد المجمعيون بفقده زميلا عظيم القدر ، نابه الذكر . ولتبقين ذكرى « عبد الفتاح » ما بقى « الإفصاح » وأهل الإفصاح .

سلام عليه فى دار السلام !

محمد شوقى امين